الفصل الثاني

الوقائع الاقتصادية في ظل نظام المشاعية البدائية

تمهيد :

ان ظهور الانسان والمجتمع يعني ظهور التشكيلة الاجتماعية – الاقتصادية الاولى في ظل نظام المشاعية البدائية . يعد نمط الإنتاج البدائي أول نمط إنتاج عرفه التاريخ الاقتصادي، وظهر نمط الإنتاج البدائي لدى جميع الشعوب منذ ظهور الإنسان قبل آلاف السنين و استمر حتى ما قبل الميلاد بقرون معدودة .

ان القانون الاقتصادي لنظام المشاعية البدائية يكمن في تحقيق وسائل العيش الضرورية بواسطة أدوات انتاج بدائية على اساس الملكية الجماعية لوسائل الانتاج والعمل الجماعي والتوزيع المتساوي للمنتجات .

٢-١ : الخصائص العامة لاسلوب الانتاج البدائي

اولا - شروط الحياة في المجتمع البدائي - تطور أدوات العمل (قوى الانتاج) :

عرفت عملية الإنتاج البدائي بتدني و انخفاض مستوى قوى الإنتاج و أدوات العمل وكانت تلك هي السمة الغالبة لعملية الإنتاج البدائي، و لهدا السبب سعى الإنسان في صراعه المستمر مع الطبيعة إلى تطوير وسائل العمل، و قد استلزمت هده العملية زمنا طويلا يقدر بآلاف السنين، ففي المرحلة الأولى من حياة الإنسان البدائي (في العصر الحجري) كانت أدوات العمل تتمثل في العصي و الحجارة و كانت متعددة الاستخدامات (تستخدم في جميع عمليات العمل) و كانت الحياة مقتصرة على جني الثمار و القنص الجماعي، و كان شائعا في دلك الوقت أكل اللحوم البشرية و ذلك لنقص الغذاء . وظلت في العصر الحجري اغلب أدوات العمل مستخدمة من الحجارة، حيث تطورت من العصا المدببة إلى استخدام سنان حجري في رأسها إلى صنع الحراب و الفؤوس و المجارف والسكاكين، وفي مرحلة ما من مراحل هدا العصر اكتشف الإنسان النار و كان هدا الأخير بمثابة انعطاف حاسم في حياة الإنسان

البدائي، ففي البداية كان هذا الإنسان يحتفظ بالنار الموجودة في الطبيعة ثم تعلم مع مرور ألاف السنين إنتاجها عن طريق الاحتكاك، و قد بدلت النار من شروط الحياة المادية للإنسان فقد مكنته من تهيئة الطعام بصورة جيدة و حفظه لمدة أطول و كذلك بإيجاد مصادر جديدة للغذاء (سمك، لحم، جذور، و درنيات)، بالإضافة إلى الوقاية من البرد و الدفاع ضد الوحوش المفترسة، والأهم من ذلك أنها مكنته من تطوير أدوات إنتاجية جديدة . بعد ذاك تعلم الإنسان صنع أدوات العمل من المعدن الخام، أولا من النحاس ثم البرونز فالحديد لذلك سمي العصران اللاحقان للعصر الحجري بالعصر البرونزي والعصر الحديدي.أعقب دلك أكشاف القوس والسهم الذي يعد مرحلة مهمة في إتقان أدوات العمل ,لأن هذا الاختراع ساعد على تطوير عملية الصيد ومن ثم ازدياد مردوده و إنتاجه و هو ما مهد لمرحلة تربية المواشي (التدجين) بشكلها البدائي (دجن الكلب أولا ثم الماعز فالبقر فالخنزير فالحصان على التوالي) وأعقب دلك كله استخدام الماشية كقوة للجر .وعلى العموم فالحياة الاقتصادية في هذه المرحلة كانت تربط الإنسان مباشرة بالطبيعة، بحيث تركز جهد الإنسان و إنتاجه في صيد الحيوانات و اقتطاف الثمار و الخيرات التي تجود بها الأرض، فلم يكن يملك آلات و رأس مال، بل مجرد أدوات بسيطة كالعصا أو الحجر لتحصيل قوته اليومي، و بالتدريج بدأ الإنسان يدخل تحسينات على أدوات إنتاجه الحجرية و الخشبية و العظمية ليحصل بواسطتها على كميات أكبر من المواد اللازمة لتحسين معيشته، و قد تحقق له ذلك من خلال :

١ - اكتشاف النار الذي سمح للانسان باكتشاف مصادر جديدة للغذاء، وللوقاية من البرد، وكذلك لصنع بعض الأدوات المنزلية من الطين و الخشب. مكنته من زيادة قدرته على توفير متطلبات عيشه وحمايته وبالذات من خلال توسيع موارد الطعام من ناحية وجعل غذائه اكثر سهولة في الهضم واكثر امكانية لتغذيته وتطوير قدرته على زيادة انتاجه، وبالذات بتطوير الوسائل والادوات التي كان يستخدمها في الانتاج والتي ازدادت من حيث تنوعها وتطورت بزيادة درجة اتقانها مع انها بقيت رغم ذلك بدائية وبسيطة ومرتبطة بمرحلة النظام البدائي التي تحققت في اطاره .

٢- اكتشاف بعض المعادن كالبرونز و الحديد

٣- اكتشاف القوس و أدوات الصيد الأمر الذي زاد من مصادر الغذاء و ساعد على تربية الحيوانات بعد اصطيادها. وقد وفرت تربية الحيوانات المواد الغذائية والصوف والجلود ومواد اخرى ضرورية للحياة، واخذ الانسان يستخدم قوة الحيوانات في الجر وحراثة الارض .

٤- تعلم مبادئ الزراعة : استطاع الناس زراعة الحبوب بدلا من جمع النباتات من على الارض، وكانت الذرة والشعير والحنطة اول المزوعات التي زرعها الانسان، وهو ما ادى لاحقا الى انفصال الزراعة عن الصيد . وقد قلص الانتقال الى الزراعة من تبعية الانسان للطبيعة نظرا للمردود المرتفع نسبيا لعمل المزارع الذي اتاح له تكوين مخزون من المواد الغذائية يستخدم عند الحاجة .

٥- تربية الحيوانات وبالذات المواشي منها والتي اسهمت فيها تطور قدرات الانسان على الصيد و الاحتفاظ بالحيوانات التي يتم صيدها من اجل تربيتها بدلا من ذبحها، حيث اهتدى الانسان الى امكانية القيام بذلك عن طريق الاحتفاظ بالحيوانات لفترة اطول وتربيتها وهو ما وفر امكانية للانسان في استخدام الماشية كمصدر لغذائه من لحوم وحليب ولمتطلبات حياته من جلود وصوف ولاستخدام بعضها في النشاطات التي يؤدي بها عمله وبالذات في الحراثة و السقي وغيرها من النشاطات المرتبطة بممارسته لنشاط زراعة المحاصيل النباتية من اجل زيادة انتاجها وتقليل الجهد الذي يتطلبه هذا الانتاج من الانسان باستخدام الحيوانات في القيام ببعض جوانب النشاط الزراعي النباتي، اضافة الى انتاجها الحيواني. وبصورة عامة يمكن القول أن التطور الحاصل في قوى الانتاج كانت له نتائج هامة هي :

أ- ساعد على ظهور الأشكال البدائية للزراعة حيث بدا الانتقال تدريجيا من جمع النباتات إلى العمل الزراعي المتطور (زراعة الحبوب : القمح و الأرز و الذرة)

ب- بالتدرج بدأت القبائل البدائية (التي كانت دائمة التنقل) تتحضر و تستقر في أماكن معينة بالإضافة إلى تحسن شروط الحياة بشكل عام.

وعلى الرغم من التطور في ادوات الانتاج الذي شهده المجتمع البدائي إلا ان

ادوات الانتاج او ادوات العمل ظلت ادوات بدائية مما حرم الانسان من امكانية الانتاج الفردي، اذ لم يستطع الانسان ان يجابه الوحوش المفترسة لوحده، ويقي حياته منها، ويحصل على الوسائل الضرورية للمعيشة، ولهذا كان من الضروري للناس ان يتحدوا في جماعات . ان قوة الجماعة الناتجة عن الافراد الذين يعملون بالأدوات البدائية كانت تشكل القوة الانتاجية الرئيسة في نظام المشاعية البدائية . وعلى الرغم من ان الجماعة كانت اساس القوة الانتاجية إلا ان هذا لا يعني ان عملية العمل لم تتطلب من الفرد كقوة منتجة مطالب معينة، لقد كانت هذه المطالب بسيطة ومعقدة في آن واحد، فمن جهة لم يكن تحضير واستعمال الادوات البدائية يتطلب معارف كبيرة ومهارات متنوعة، ومن جهة اخرى كانت فعالية عمل الانسان تتعلق بصفاته الفيزيائية (القوة، الخفة) وبصفاته الروحية (الارادة، الصبر، الشجاعة) وبمعارفه عن الطبيعة . ولما كان مستوى القوى المنتجة بدائيا فإن ذلك كان يتطلب من الانسان متطلبات كثيرة وكبيرة، كان عليه ان يقف كل يوم في مواجهة قوى الطبيعة الغريبة عنه والمعادية له .

ثانيا ـ علاقات الانتاج في المجتمع البدائي :

بما أن الفرد لا يقوم بمفرده بعملية الإنتاج تنشا علاقات بين الإفراد تسمى علاقات الإنتاج و هنا يجدر بنا حصر علاقات الإنتاج في القانون الاقتصادي الاساسي لنظام المشاعية البدائية، و هو (ضمان وسائل المعيشة الضرورية للإنسان بالاعتماد على أدوات إنتاج بدائية و على أساس مشاعية تملك وسائل الإنتاج و العمل الجماعي و طريقة التوزيع المتساوي للمنتجات)من هدا القانون يمكن استنتاج اهم السمات التي تتميز بها علاقات الانتاج بما يلي:

أ – السمة الأولى لعلاقات الإنتاج في المجتمع البدائي هي العمل الجماعي الذي يأخذ شكل التعاون البسيط، حيث يقوم كل أفراد العشيرة بالعمل بطريقة جماعية، إذ يقوم كل الأفراد بانجاز عمل واحد فقط (الصيد مثلا) دون أن يكون هناك تخصص أو تقسيم عمل، باستثناء التقسيم الفسيولوجي للعمل سواء حسب الجنس (بين الرجال والنساء)، أو التقسيم حسب السن، حيث كانت النساء تقوم بجمع النباتات وإدارة شؤون المنزل، وكان الصيد من اختصاص الرجال،

ولعل السبب الرئيسي وراء طبيعة العمل الجماعية هو انخفاض و ضعف مستوى أدوات العمل (عدم وجود أدوات عمل متطورة) والتي لا يستطيع بواسطتها الفرد منفردا مواجهة الطبيعة. لهدا كان العمل الجماعي واجبا وضروريا في نفس الوقت في العهد البدائي، لذلك كان الأفراد ينتقلون مجتمعين من عمل إلى آخر من الصيد مثلا إلى الزراعة أو الرعي، و ذلك حسب ما يراه أعيان الجماعة (الأفراد الأكبر سنا) مناسبا و ينسجم مع مصلحة الجماعة .

ب- السمة الثانية لعلاقات الإنتاج البدائي هو الملكية الجماعية لوسائل الإنتاج. حيث ترتبط ارتباطا وثيقا بالسمة الأولى (العمل الجماعي و التعاون البسيط). اذ كانت الأرض وجميع الموجودات (أدوات العمل) ملكا للجميع و هذا طبعا باستثناء بعض الأشياء مثل الألبسة و بعض وسائل الدفاع عن النفس التي تم استخدامها بطريقة فردية . ان اساس علاقات الانتاج في ظل النظام المشاعي البدائي هو ان وسائل الانتاج مملوكة جماعيا. وهذا ينسجم بصورة رئيسية مع طابع قوى الانتاج في تلك الفترة. الادوات الحجرية وبعدها القوس والنشاب، مما أعاق ان يقوم الناس منفردين في مكافحة قوى الطبيعة والحيوانات المفترسة. من اجل جمع حشائش ونباتات الغابات وصيد السمك، وبناء نوع من المأوى، اضطر الناس إلى العمل مجتمعين اذا لم يريدوا ان يموتوا جوعا، أو ان يقعوا فرائس للحيوانات المفترسة أو ضحايا للمجتمعات المجاورة. ان العمل سوية ادى إلى الملكية العامة لوسائل الإنتاج وكذلك لثمار الانتاج . هنا لم توجد بعد فكرة الملكية الخاصة لوسائل الانتاج، فيما عدا الملكية الشخصية لبعض ادوات الانتاج التي كانت في الوقت ذاته وسائل للدفاع ضد الحيوانات المفترسة. هنا لم يكن ثمة استغلال ولا طبقات.

ج - ثمار العمل (المواد الاستهلاكية) كانت مشتركة للأسباب السابقة.

د -المساواة في توزيع الناتج على الناس نظرا لضعف القوى المنتجة التي جعلت الملكية جماعية لادوات الانتاج .

٢-٢ : التنظيم الاجتماعي والتقسيم الطبقي في المشاعية البدائية

اولا - التنظيم الاجتماعي - نظام العشيرة :

كانت العشيرة تمثل الوحدة الاقتصادية و الاجتماعية و السياسية التي يقوم عليها المجتمع البدائي . اذ كان الشكل القبلي لاجتماع الناس يتلائم مع شروط النظام البدائي، كانت العشيرة والقبيلة تؤلف جماعة ينتظم الناس فيها في علاقات اسرية وعائلية واقتصادية وايدلوجية، وكانت العشيرة والقبيلة مجموعة من الاقارب وخلية انتاجية في آن واحد، وشكلا للتنظيم الاجتماعي في المجتمع، وجماعة تضمها لغة واحدة . كانت العشيرة والقبيلة بمثابة حدود للانسان في شتى نواحي علاقاته : العلاقة المكانية – كان بإمكانه التنقل بصور حرة فقط ضمن حدود الرقعة التابعة للعشيرة والقبيلة، والاقتصادية – كان وجوده مرتبطا بوجود الجماعة . لقد كان يعي نفسه ويتمثلها لا كشخصية منعزلة وانما كفرد من افراد العشيرة، وكان من النادر جدا ان يحصل خرق لنظام الحياة القائم وللعادات والتقاليد، وكل ما كان خارج نطاق العشيرة والقبيلة كان غريبا بالنسبة له . لقد عكس هذا الوعي العلاقات الواقعية بين الناس التي ظهرت عندما لم يكن بإستطاعة الانسان ان يعيش بمعزل عن الآخرين، وعندما كانت الجماعة هي القوة الانتاجية للمجتمع .

ويذكر أن المرأة احتلت مكانة مرموقة وادت دورا مهما في المرحلة الأولى للنظام العشائري و ذلك بسبب شروط الحياة المادية نفسها، حيث كانت الزراعة البدائية و التدجين البدائي من اختصاصها وهما أهم من الصيد (الذي تخصص فيه الرجل) من الناحية الاقتصادية حيث يعد الصيد ذو مردود غير مضمون. و قد تعاظم دور المرآة إلى أن أصبح النسل ينسب إليها وسميت هده المرحلة بنظام العشيرة الامومية إلا أن تطور القوى المنتجة و ظهور التدجين المتطور(المراعي) والزراعة المتطورة (الحبوب) والتي كانت من اختصاص الرجل، أدى إلى تغيير الموازين و انتقلت السيادة من المرأة إلى الرجل وأصبح النسل ينسب إليه وحل نظام العشيرة الأبوية محل العشيرة الامومية. ونظرا لعدم وجود الفائض و الاستثمار والملكية الخاصة لوسائل الإنتاج و الطبقات لم يظهر في دلك الوقت ما يسمى بجهاز الحكم (الدولة) و كان العرف وحده هو وسيلة الحكم وهو أساس هيبة رؤساء العشائر.

ثانيا ـ التقسيم الاجتماعي للعمل:

ارتبط التقسيم الاجتماعي للعمل مع ظهور كل من الزراعة و الرعي أي زراعة الأرض و تربية المواشي. حيث حصل تخصص في العمل(تقسيم للعمل) على أساس المشاعيات، و كان أول تقسيم اجتماعي كبير للعمل هو تقسيم العمل على أساس المشاعيات أي انفصال الزراعة عن الرعي . كانت أهم نتيجة لهدا التقسيم الاجتماعي للعمل قيام و تطور ما يسمى بالتبادل بين قبائل الرعاة و قبائل الزراعة وقد بدأ نطاق التبادل بالاتساع مع ظهور تقسيمات اجتماعية أخرى للعمل نتيجة تطور أدوات الإنتاج، فظهرت مهنة صنع الأواني الفخارية والحياكة اليدوية، ومع ظهور الحديد أصبح من الممكن صنع الأدوات الحديدية (المحراث، الفأس، والسيف) وبهذا تم تمهيد الطريق لانقسام هام جديد في المجتمع وهو التخصص الحرفي أو المهني داخل المشاعية نفسها و هو ما أدى إلى توسع نطاق المبادلات. وتجدر الإشارة الى أن التبادل كان في البداية يتم على أساس عشائري بين رؤساء العشائر وباسم عشائرهم ثم تحول بعد تملك الماشية ملكية خاصة إلى تبادل بين الأفراد و قد كان هدا التحول تدريجيا إلى أن أصبح التبادل الفردي هو الشكل الوحيد للتبادل .

ثالثا ـ ظهور التملك الخاص و الطبقات :

ان التطرق الى التملك الخاص و الطبقات يعني الحديث عن مرحلة متقدمة جدا من النظام المشاعي (تكاد تكون بمثابة مرحلة انتقالية بين النظام المشاعي و نظام الرق)، فبعد التطور الحاصل على مستوى أدوات العمل أصبح العمل أكثر إنتاجية وهو الأمر الذي لم يعد يستدعي العمل بطريقة جماعية على مستوى العشيرة، فارتفاع الإنتاجية سمح بالإنتاج في الزراعة و الرعي والحرف على نطاق اجتماعي أضيق من العشيرة وهو الأسرة التي أصبحت الوحدة الاقتصادية والاجتماعية الجديدة في المجتمع، وبهذا فسح المجال للعمل الخاص على نطاق الأسرة للحلول تدريجيا محل العمل الجماعي المشترك مما أدى إلى ظهور الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج، و يشير التاريخ أن الملكية الخاصة بدأت بالماشية، فقد بدا زعماء العشائر بامتلاكها بعدما كانت ملكية جماعية لإفراد العشيرة، ثم امتدت الملكية الخاصة لجميع أدوات الإنتاج

وكانت الأرض آخر ما دخل في نطاق التملك الخاص. وقد أدى ظهور الملكية الخاصة إلى تقسيم العشيرة أولا إلى اسر كبيرة ثم إلى وحدات عائلية صغيرة بالإضافة إلى تغيير البنيان الاجتماعي للمجتمع البدائي حيث انفصل مالكي وسائل الإنتاج عن عامة أفراد المجتمع و أصبحوا يتولون المناصب الاجتماعية والسياسية - و هو ما ساهم في نشوء الأسر الارستقراطية - . و قد توسع نطاق الملكية نحو تملك جميع وسائل الإنتاج بما فيها الإنسان نفسه - ففي السابق كان الأسرى يقتلون لأنه في ظل انخفاض مستوى أدوات العمل لا يستطيع الأسرى إنتاج كميات إضافية تزيد عن حاجاتهم، لكن في ظل تطور أدوات العمل أصبح الاحتفاظ بالأسرى مجدي من الناحية الاقتصادية، اد أصبح الأسرى يحققون فائضا من المنتجات وهو ما أصبح يبرر عدم قتل أسرى الحرب و الاكتفاء باستعبادهم - و بهذا ظهر نظام الرق وتوسع ليشمل مع التطور التاريخي أفراد القبيلة نفسها . و بهدا تكون علاقات الإنتاج المشاعية قد انتهت لتحل محلها علاقات إنتاج جديدة . ويمكن حصر أهم العوامل التي ساهمت في ظهور التملك الخاص والطبقات بما يلي :

١- التقسيم الاجتماعي المستمر للعمل، اذ ان التحسين التدريجي لادوات الانتاج ادى الى رفع مردود العمل الفردي، وإن توسيع وتطوير الانتاج ادى الى تقسيم العمل وظهور الانتاج الفردي . اذ صار كل فرد من افرادها يعمل لوحده في انتاج سلعة من السلع ثم يبيعها في السوق، عند ذلك ظهرت الملكية الخاصة كتعبير لهذه الخاصية المادية لمنتجي السلع .

٢- ظهور إمكانية العمل الفردي و الملكية الخاصة نتيجة تطور أدوات العمل وتطور قوى الانتاج، وبصورة خاصة اكتشاف صهر المعادن واستخدام الادوات . لقد صار الانسان اكثر قوة، وصار بإمكانه لوحده او مع اسرته، ان ينتج وسائل معيشته . وفي الوقت ذاته اخذت ضرورة العمل المشترك بين افراد العشيرة تفقد قوتها ولم تعد توحد الناس في جماعة، ثم سقطت هذه الجماعة ذاتها . وبما ان ادوات الانتاج هنا هي ادوات استخدام فردي، فقد ظهر الاهتمام المادي في تطوير الانتاج على اساس هذه الادوات في شكل علاقات انتاجية قائمة على اساس الملكية الخاصة . وهو ما ادى الى انقسام المجتمع الى طبقات اجتماعية .